

علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك

(١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

دكتور قاسم عبده قاسم

كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧ م) قوة عالمية عظمت ، كما كانت هى القوة الكبرى فى أفريقيا وعالم البحر الأحمر ومن ناحية أخرى ، كان البحر الأحمر فى ذلك الزمان بحيرة عربية اسلامية تسيطر عليها الأساطيل المصرية ، وتحرم على سفن غير المسلمين دخوله لأسباب سياسية واقتصادية ودينية وأمنية (١) . وكانت مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى قد أولت اهتماما متزايدا للبحر الأحمر باعتبارها حامية الحرمين الشريفين فى الحجاز من ناحية ، وبسبب ارباحها من التجارة العالمية المارة بهذا البحر من ناحية ثانية ، ثم اهتمامها بأحوال المسلمين فى شرق أفريقيا من ناحية ثالثة فضلا عن اهتمامها التقليدى بأمنها الذى يشكل البحر الأحمر محورا هاما من محاوره .

وعلى الجانب الآخر كانت الحبشة تلعب دور القوة المسيحية الكبرى فى شرق القارة السمراء (٢) وعالم البحر الأحمر أيضا ، كما كانت مصالحها

(١) عرف البحر الأحمر فى المصادر التاريخية العربية باسم « بحر القلزم » أو « بحر الحجاز » المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٥ ، ص ٢١٢ ، ص ٣٤١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٢) كانت الحبشة آنذاك تمتد من حدود امبراطورية مالى فى غرب أفريقيا ، ويتضح من كلام المقرئى والقلقشندي أنها كانت تضم الى جانب الحبشة الحالية ، أقاليم دارفور وبحر الغزال والنيل الأبيض فى السودان الحالى ، فضلا عن سيادتها على مناطق شرق أفريقيا التى عرفت باسم « الطراز الاسلامى » - انظر :

المقرئى ، الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٢ - ٣٢٨ .

Ziada, M. M., Forlign Relations of Egypt in the 15th century (Liverpoole 1930), p. 114.

السياسية والاقتصادية والدينية تفرض عليها أن تمد خيوط علاقاتها لتلتقى مع خيوط المصالح المصرية ، فوق مياه البحر الأحمر ، وعلى تراب القسرة السمراء .

وهكذا كانت علاقة مصر بالحبشة فى عصر سلاطين المماليك محكومة بحقائق الجغرافيا ، وتوجهات السياسة ، وخبرة التاريخ ، فضلا عن المصالح الاقتصادية والروابط الدينية . ومن نافلة القول أن ننبه الى أن هذه كلها لم تكن من نتاج العصر الذى نهتم بدراسته وانما كانت نتاجا لتراكمات تاريخية فرضتها حقائق الموقع والمجال الحيوى لكل من مصر والحبشة آنذاك .

لقد فرضت الظروف والأحداث التاريخية التى شهدتها المنطقة فى منتصف القرن الثالث عشر أن تقوم مصر بدور القوة الضاربة المدافعة عن العالم الاسلامى وعن الحضارة العربية الاسلامية(٣) . أما الحبشة ، فقد سيطرت سياسيا على جزء من ساحل أفريقيا الشرقى الذى قامت على ترابه عدة امارات ودويلات عرفها مؤرخو ذلك الزمان باسم «الطراز الاسلامى»(٤) . كما أن نجاشى الحبشة — الذى عرفته مصادر عصر سلاطين المماليك باسم الحطى — كان يعتبر نفسه مسئولا عن حماية الأقباط فى مصر . وقد تدخل لصالحهم أكثر من مرة كما سنرى فى هذه الدراسة .

بيد أن المصالح التجارية لعبت هى الأخرى دورا هاما فى تحديد مسار العلاقات بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك ، اذ كانت امارات «الطراز الاسلامى» ، ولا سيما امارة «أوفات» ، تتحكم فى الطريق

(٣) قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر ، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على الممولى فى معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات . ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد احياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

(٤) قال القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤) انها فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند (وهى ما يعرف حثيا باسم «القرن الافريقى») ، ويعبر عنها بالطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له . وهى سبع امارات : وفات (أوفات) وهى جبرة التى ينسب اليها الجبرتى ، وزيلع ، ودوارو ، وأرابينى ، هدية ، شرعا ، بالى ، ثم دارة .

التجارى الذى كان يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر . وقد أدى هذا الموقف الى تعاظم ثروة امارات الطراز الاسلامى بحيث أسالت لعاب الطمع فى الحبشة المسيحية . من ناحية أخرى ، كانت لمصر مصالح تجارية حيوية فى هذا الجزء من أفريقيا . كما لفتت أنظارها ومشاعرها تلك الحملات العنيفة التى بدأ الأحباش المسيحيون يشنونها على المسلمين فى شرق أفريقيا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

وعندما تصاعد الدور الأوروبى فى عالم البحر المتوسط — نتيجة نجاح الحملة الصليبية الأولى — فى القرن الثانى عشر ، ثم بداية الالتفاف والتوغل الأوروبى فى مياه المحيط الهندى ومدخل البحر الأحمر ، وجد ملوك الحبشة المسيحيون فى هذه التطورات العسكرية والسياسية الناجمة عن نشاط الصليبيين فى البحر المتوسط ، والنشاط البرتغالى فى المحيط الهندى ما يغريهم على صياغة مشروعات صليبية الطابع مع القوى الأوروبية ضد مصر . وكان ذلك انعطافا خطيرا فى العلاقات بين مصر والحبشة آنذاك .

لقد اتخذت العلاقات المصرية/ الحبشية فى عصر سلاطين المماليك أبعادا ثلاثة : أولها : البعد الاقتصادى ، الذى تمثل فى المصالح التجارية لكل من البلدين فى داخل أفريقيا وفى تجارة البحر الأحمر العالمية . وثانيها : البعد الدينى الذى تجسد فى الروابط الدينية التى جمعت بين مصر ومسلمى الطراز الاسلامى من ناحية ، والحبشة وكنيسة الأقباط فى مصر من ناحية أخرى . أما البعد الثالث : فقد جسده العلاقات السياسية والعسكرية التى كانت بدورها انعكاسا لحركات المد والجزر فى العلاقة فى بعدها الاقتصادى وبعدها الدينى . ولنبدأ فى معالجة كل من المسارات الثلاثة التى اتفقتنا عليها .



وإذا بحثنا فى البعد الاقتصادى لوجدنا أن الظروف الناجمة عن الفزو المغولى ، الذى بدأ يجتاح المناطق الاسيوية منذ عهد جنكيزخان حتى داهم الخلافة العباسية ببغداد فى خمسينيات القرن الثالث عشر الميلادى ، قد أدت الى تحول طرق التجارة العالمية الى مصر وطريق البحر الأحمر . وبذلك صارت لمصر مصالح تجارية حيوية فى البحر الأحمر . فقد وصل المغول

الى فارس والعراق وشرق آسيا الصغرى ، وبذلك انقطعت القوافل التجارية بين أوروبا والشرق عن ارتداد ذلك الطريق ، وتحولت الى الطريق عبر مصر والبحر الأحمر .

وقد تميز طريق البحر الأحمر التجارى بميزتين هامتين تتعلق أولاهما بالتجارة العالمية وهى سيادة الأمن على طول هذا الطريق بسبب قوة الدولة الملوكية ومهابتها فى طور صعودها ، على حين تتصل الميزة الثانية بتجارة البحر الأحمر الداخلية ، اذ كان هذا البحر سوقا لتبادل المنتجات التى توفرها البلاد الافريقية الداخلية والتى تطل على البحر ، فتدكان البحر الأحمر الطريق الأساسى لمنتجات امارات الطراز الاسلامى ، فضلا عن منتجات الحبشة وافريقيا الوسطى وبلاد البجاة . ومن المهم ان نشير الى أن البجاة كانوا يقومون بدور الوساطة فى العلاقات التجارية بين مصر والحبشة . وكانت عاصمتهم سواكن . وقد وصفهم القلقشندى بأنهم سكان المنطقة الواقعة ما بين نهر النيل والبحر الأحمر جنوبى الصعيد ، وفى عصر المماليك الجراكسة كان حاكمهم عربيا ، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية (٥) . وهكذا امتدت خيوط الروابط التجارية بين مصر والحبشة فى اتجاهين : أحدهما يهتم بمصالح مصر ودورها فى التجارة العالمية التى تستخدم البحر الأحمر ، على حين يهتم الانجاه الثانى بالتجارة الداخلية بين الدول الافريقية ، سواء الداخلية منها أو تلك التى تطل على البحر الأحمر .

هذه المصالح التجارية ، بجناحيها العالمى والمحلى ، هى التى حكمت علاقات مصر بعالم البحر الأحمر على مستوى العلاقات الاقتصادية التى تبادلت التأثير والنأثر مع العلاقات السياسية والدينية . وقد اهتم سلاطين المماليك

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٧٤ . وكان البجاة خليطا من المسلمين والمسيحيين والوثنيين . ومنذ القرن السابع الميلادى ذكرهم المؤرخ عبد الرحمن بن عبد الحكم وهو يتحدث عن حملات عبد الله بن سعد ابن أبى السرح . ومنذ ذلك الحين اختلطت بهم بعض القبائل العربية التى استوطنت أرض البجاة ، ومع مرور الزمن تصاعد الوجود العربى فى تلك الأنحاء حتى انتشرت اللغة العربية والاسلام فى مناطق البجاة لتقترب من حدود الحبشة التى كانت تضم بعض مناطق السودان الحديث (حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ص ٤١٩ — ص ٤٢٥) .

بأنشاء الوكالات التجارية المصرية على طول شاطئ هذا البحر ، كما اهتموا بتأمين طرق القوافل التجارية على البر . وأخذ الأسطول المصرى يجوب مياه البحر الأحمر من السويس الى عدن مطاردا القراصنة كما امتدت فوق الأرض المصرية شبكة من الطرق البرية والنهرية ، وقامت على ضفاف نهر النيل عدة موانئ لخدمة التجارة العالمية كان أهمها فى القرن الأول من عصر سلاطين المماليك ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومدينة قوص فى الوادى (٦) .

والواقع ان التجارة على الساحل الشرقى لافريقيا قد نشطت منذ القرن الثانى عشر الميلادى بسبب الحروب الصليبية التى أدت الى استخدام طرق القوافل البرية التى امتدت شبكتها فى القارة الافريقية ، وكان أهم ما نلته هذه القوافل العاج والذهب اللذين اشدت الطلب عليهما فى أسواق غرب أوروبا (٧) . وكانت امارات الطراز الاسلامى على الشاطئ الشرقى لافريقيا تقوم بدور المعبر الهام لهذه التجارة التى ازداد نشاطها بعد غزوات المغول .

ومنذ البداية اشدت المنافسة بين موانئ البحر الأحمر على نقل التجارة العالمية وتجارة افريقيا الداخلية . فكانت موانئ مصوع وسواكن تختص بنقل تجارة الحبشة والنوبة حيث كانت القوافل القادمة عن طريق البر تحمل اليها الرقيق والشمع والعسل من بلاد النوبة . كذلك كانت سفن دول افريقيا والبحر الأحمر تتجمع بمينائى زيلع وبربرة اللذين كانا بمثابة المركز الذى تتجمع فيه تجارة الحبشة والنوبة . وفى ميناء زيلع كانت تعقد أسواق العبيد والمعادن واللؤلؤ (٨) .

وكانت امارة أوفات الاسلامية (جيرة أو جبرت) تتحكم فى الطريق

(٦) المقرئى ، الخط ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، وقد ظل تجار الحبشة ، وغيرهم ، يردون فى البحر الأحمر الى عيذاب ثم يسلكون الصحراء الشرقية الى قوص ثم العاصمة المصرية . وقد استمر الحال كذلك حتى سنة ٧٦٠ هجرية ، فتلاشى أمر ميناء عيذاب واحتلت عدن مكانتها (الخط ، ج ١ ، ص ٢٠٢) .

(٧) الشاطر بصلى ، تاريخ وحضارات السودان الشرقى والأوسط (الهيئة العامة للكتاب) ، ص ٢٠٠ .

(٨) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، ص ١٤١ — ص ١٤٢ .

التجارى الذى يربط داخل الحبشة بميناء زيلع على البحر الأحمر (٩) . وقد ذكر « القلقشندى » أن إمارة أوفات كانت أوسع الممالك الإسلامية السبع التى تكون « الطراز الإسلامى » وأنها أقربها إلى مصر (١٠) أما إمارة هدية فكانت مركزا لتوريد الرقيق الذين كانوا يخصونهم فى قرية قريبة منها (١١) . وقد ازدهرت هذه الإمارات وزاد ثراؤها من دورها فى تجارة أفريقيا والبحر الأحمر بحيث استقلت عن الحبشة ، ثم دخلت معها فى سلسلة من الحروب الطاحنة كما سنرى فى صفحات هذا البحث .

ومنذ البداية أدرك سلاطين الممالك أهمية تأمين الطريق التجارى البحرى والبرى بين مصر وأفريقيا ، فقد ذكر « ابن عبد الظاهر » أن صاحب سواكن المسمى « علم الدين أسبعانى » ، الذى كان معاصرا للسلطان « الظاهر بيبرس » كان قد اعتاد التعرض للتجار المصريين وأخذ ميراث من يموت منهم فى البحر ، ومنع أولاده منه ، فأرسل يحذره هو وصاحب جزر ذلك المواجهة لمصوع ، ولما لم يجد منهما استجابة لاحتجازه أمر بتجريد حملة بحرية لاختضاع سواكن فى سنة ٦٦٣ هجرية (١٢٦٥ م) . وبالفعل قامت حملة بقيادة والى قوص وأخميم ، وهرب صاحب سواكن التى تم إخضاعها لمصر . ومنذ ذلك الحين كانت هناك حامية عسكرية مصرية دائمة فى سواكن عاصمة بلاد البجاة التى كانت ممرا للتجارة بين مصر والحبشة (١٢) .

(٩) عبد الرحمن زكى ، الإسلام والمسلمون فى أفريقيا ، ص ٢١٣ —
ص ٢١٥ ، حسن محمود ، الإسلام والنقائنة العربية فى أفريقيا ، ص ٤٣٢ —
ص ٤٣٣ .

(١٠) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ .

(١١) المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(١٢) ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر ، ص ٢٤٨ — ص ٢٤٩ . والجدير بالذكر أن مصر كانت تصدر إلى الحبشة البلسان أو البلسم الذى كان ينمو فى المطرية من ضواحي القاهرة ، وكان المسيحيون يحرسون عليه ولا يساوونه بذهب أو فضة لاعتقادهم أنه يروى من بشر اغتسل فيها مسيح حين قدمت به أمه إلى مصر (القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٣) كذلك كان شحم البقر يصدر من مصر إلى دول الساحل الأفريقى وغيرها لاستخدامه فى دهان السفن ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ص ١٣٤ .

وظلت سياسة المالك قائمة على أساس الحفاظ على أمن طريق التجارة بين مصر وأفريقيا ودول البحر الأحمر .

يبد أن تدهور البناء الداخلى لدولة المالك الجراكسة لم يلبث أن انعكس على علاقاتها التجارية بعالم البحر الأحمر وأفريقيا . ذلك أن حاجة السلاطين المتزايدة الى الأموال جعلتهم يشترطون فى تقدير قيمة الضرائب التى فرضوها على التجار القادمين فى البحر الأحمر الى ميناء جدة الخاضع لهم . وقد تدهورت الموانئ المصرية لدرجة أن « ابن اياس » يذكر فى حوادث سنة ٩٢٠ هجرية (١٥١٥ م) أن المراكب لم تدخل جدة مدة تقرب من ست سنوات (١٢) .

ومن ناحية أخرى ، أدى نجاح البرتغاليين فى الوصول الى مياه المحيط الهندى فى سنة ١٤٨٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » الى حصار المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بحيث تحرلت السفن المحملة بالتوابل الى لشبونة عن طريق رأس الرجاء الصالح . وقد ذكر « المؤرخ اليمنى » يحيى بن الحسين « أن البرتغاليين قد فشلوا عدة مرات فى الدوران حول أفريقيا للوصول الى المحيط الهندى ، ثم « ... دلهم على الطريق رجل ماهر من أهل البحر يقال له « أحمد بن ماجد » بسبب أن كبير الفرنج أحسن اليه ولطفه ... » (١٤) . فقد كان « فاسكو دا جاما » فى ملندى بشرق أفريقيا سنة ١٤٩٨ م يبحث عن أحد الأدلاء ليقوده الى الهند ، وهناك لم يجد سوى « أحمد بن ماجد » الذى كان ملحا ممتازا ، وكان قد وضع دليلا بحريا استند فيه الى خبرته الشخصية الى جانب كتب السابقين (١٥) .

ومكذبات الخطر البرتغالى يهدد البحر الأحمر ذاته . وعلى الرغم من النجاح الجزئى الذى أحرزه السلطان « قنصوه الفورى » ، وقائد اسطوله

(١٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٣٥٩ ، كما يذكر فى موضع آخر (ج ٥ ، ص ٩٠) أن التجار امتنعوا عن دخول ميناء جدة « ... وآل أمره الى الخراب ... » .

(١٤) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠ — ص ٦٣٢ .

(١٥) جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحه فى المحيط الهندى (ترجمة الدكتور يعقوب بكر — الأنجلو ١٩٥٨ م) ، ص ٢٣٧ .

« حسيں الكردى » فى ابعاد البرتغاليين عن البحر الأحمر ، فان تدهور الأحوال الداخلية فى مصر فى اواخر عصر سلاطين المماليك جعل مقاومة المحاولات البرتغالية غير ذات جدوى (١٦) . فمنذ نجاح البرتغاليين فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أخذ طريق البحر الأحمر التجارى يفقد قيمته تدريجيا . وكان طبيعيا أن تتدهور موانئ هذا البحر منذ ذلك الحين . وضاع طريق البحر الأحمر ليعود ثانية بعد افتتاح قناة السويس .

وعلى صعيد العلاقات الدينية ، كانت علاقة مصر بالحبشة محكومة بحقيقتين هامتين **أولاهما** : تتمثل فى الوجود الإسلامى شرق الحبشة ، **وثانيتهما** : العلاقة الوثيقة التى كانت تربط كنيسة الحبشة بالكنيسة القبطية .

وبالنسبة للوجود الإسلامى فى شرق الحبشة ، فان التاريخ يذكر لنا أن ثمة علاقة مبكرة قد قامت بين المسلمين والحبشة منذ هجرة المسلمين الأولى الى الحبشة فرارا من اضطهادات المكيين لهم .

بيد أن أول احتكاك بين الدولة العربية الإسلامية والحبشة كان فى عهد الخليفة « عمر بن الخطاب » حين أرسل أسطولا صغيرا لغزو الحبشة سنة ٢٠ هـ تقريبا بقيادة « علقمة بن مجزر المدلجى » (١٧) . وباعت تلك الحملة بالفشل . وطوال العصور التالية زاد الوجود العربى الإسلامى بطريقة سلمية فى الحبشة وشرق افريقيا ، خصوصا فى أرخبيل دهلك المواجه لمصوع على الساحل الصومالى . ومن ناحية أخرى كان من نتيجة التبادل التجارى ، بين اليمن والحجاز من ناحية والحبشة وشرق افريقيا من ناحية ثانية ، أن رحلت مجموعة من التجار العرب المسلمين الى هذه الأنحاء ، واستقروا فى جبرت (أوفات) وسموا بعد ذلك « الجبرية » (١٨) . وكانت تلك نواة إمارات

(١٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٨٢ — ص ١٨٥ م .
وقد ذكر فى حوادث سنة ٩١٦ هجرية أن أمير مكة قبض على ثلاثة من البرتغاليين متخفين فى زى الأروام .

(١٧) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية ، ص ٤٢٦ — ٤٣٣ .
(١٨) كانت هذه المجموعة من المستوطنين المسلمين الأوائل من قبيلة قریش على ما يبدو وذكر بعضهم أنهم من بنى هاشم من سلالة بنى عبد الدار ، على حين زعم البعض الآخر أنهم من سلالة على بن أبى طالب — انظر :
المقرئزى ، الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام ، ص ٩ .

« الطراز الاسلامى » التى ازدهرت فيما بين القرن الرابع الهجرى والقرن السابع الهجرى (العاشر/الثالث عشر الميلادى) . وقد امتد نفوذهم على مناطق الساحل الشرقى الافريقى بحيث تكونت ممالكهم السبع بفضل دورهم فى التجارة المحلية وتحكمهم فى طريق تجارة الحبشة الى موانئ البحر الأحمر .

وقد وصف « القلقشندى » و« المقرئى » هذه الامارات وصفا دقيقا اعتمادا على ما ذكره « العمرى » صاحب « مسالك الأبصار » ، وروايات التجار والفقهاء الذين زاروا هذه المناطق . وقد حددها « القلقشندى » جغرافيا بأنها تقع على الساحل الشرقى لافريقيا « ... المقابلة لبر اليمن على أعالي بحر التلزم وما يتصل به من بحر الهند ، ويعبر عنها الطراز الاسلامى لأنها على جانب البحر كالطراز له ... » (١٩) . وقد عرفت هذه البلاد فى مصر وبلاد الشام باسم « بلاد الزيلع » على الرغم من أن الزيلع « ... قرية من قراها ، وجزيرة من جزائرها غلب عليها اسمها ... » (٢٠) .

هذه الامارات السبع هى : أوفات (جبرة ، أو جبرت) التى كانت أقوى امارات الطراز الاسلامى وأكثرها عسكرا وأقربها الى مصر ، وكانت زيلع احدى مناطقها يفد اليها التجار فيرحب بهم أهلها ، وكانت مركزا هاما من مراكز التبادل التجارى لمنتجات داخل الحبشة ودول البحر الأحمر . والامارة الثانية هى « دوارو » ، والثالثة « أرابينى » ، والرابعة « هدية » التى كانت مركزا هاما من مراكز تجارة الرقيق الافريقية . وكانت هناك قرية قريبة اسمها « وشلو » يخصوصون بها العبيد « ... أهلها همج لا دين عندهم ، فتخصى بها العبيد ، ولا يقدم على هذا فى جميع بلاد الحبشة سواهم .. » . والامارة الخامسة « شرعا » ، والسادسة « بالى » ، ثم الامارة السابعة « دارة » التى كانت أضعف امارات « الطراز الاسلامى » (٢١) .

وكانت هذه الامارات السبع خاضعة للنفوذ السياسى لملك الحبشة

(١٩) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .

(٢٠) المقرئى ، الامام ، ص ٢ .

(٢١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ — ٣٣٠ .

المقرئى ، الامام ، ص ٢ — ٩ .

(م ٥ — العرب فى افريقيا)

الذى كان نفوذه يشمل نسعة وتسعين ملكا من حكام الولايات منهم سبعة مسلمون كانوا يؤدون له ضريبة سنوية من المال والقماش وغيره .

وقد تداخلت العلاقات السياسية بالعلاقات الدينية فى ذلك الزمان بشكل يصعب تحديد مداه . ومن ثم كانت العلاقات بين الحبشة وامارات « الطراز الاسلامى » من أهم نقاط التوتر فى العلاقة بين مصر والحبشة ، فقد كان سلاطين المماليك يعتبرون أنفسهم مسئولين عن المسلمين فى تلك الانحاء . كما أن موقع هذه الامارات فى منطقة القرن الافريقى ذات الموقع الحاكم فى البحر الأحمر كان يجعل مصر والحبشة يهتمان بهذه المنطقة لاعتبارات أمنية .

وعلى الصعيد السياسى/العسكرى تدهورت العلاقات بين البلدين أحيانا بسبب الحروب التى شنها الملوك الأحباش ضد امارات الطراز الاسلامى . وهى حروب استمرت ، بشكل متقطع منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر . ولم يكن سلاطين المماليك بقادرين على التدخل المباشر لصالح مسلمى الحبشة ، ومن ثم فأنهم لجأوا الى الطرق الدبلوماسية أحيانا ، والضغط عن طريق بطريك الأقباط الذى كان الزعيم الروحى للأقباط أحيانا أخرى . والحقيقة أن قانون كنيسة الأحباش الذى كان يجعل من الضرورى تعيين مطران يعقوبى قبطى لرئاسة الكنيسة الحبشية هو الذى جعل ملوك الأحباش يهتمون برد فعل سلاطين المماليك ولا يواصلون حروبهم الوحشية ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى .

والجدير بالذكر أن العلاقات بين مصر والحبشة كانت قد توقفت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بسبب الحروب الأهلية واضطراب الأمن فى الحبشة . وفى سنة ١٢٧٠ م بدأ حكم الأسرة السليمانية عندما اعتلى العرش النجاشى « يكونو أملاك » (٧٠ — ١٢٨٥ م) ، فتمت المصالحة بينه وبين الكنيسة الحبشية . وعلى الرغم من كراهيته لمسلمى الطراز الاسلامى بسبب اتساع نفوذهم وسيطرتهم على الموانئ والتجارة ، فإنه سعى لتحسين العلاقات مع مصر حيث يقيم البطريرك القبطى صاحب السلطة على كنيسة الحبشة . وأرسل « يكونو أملاك » الى السلطان « الظاهر بيبرس » سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) برسالة ضمن كتاب صاحب اليمن ، الذى طلب نجاشى الحبشة وساطته ، يطلب مطرانا لكنيسة الحبشة . وقد حفظت

لنا المصادر العربية نص هذه الوثيقة والرد المصرى عليها (٢٢) . وتشير الوثيقة الى أن الملك الحبشى قد أرسل هدية الى السلطان بيبرس ، كما تحمل بين سطورها تهديدا خفيا بذكر المسلمين الخاضعين لسلطة ملك الحبشة . وقد رفض الظاهر بيبرس ارسال المطران الى الحبشة نظرا لما بلغه من هجوم « يكونو أملاك » على امارة أوفات وحلفائها . ومع ذلك فان الرد الرسمى رفض الطلب الحبشى بحجة عدم حضور رسول من جهة نجاشى الحبشة « .. حتى كنا نعرف الغرض المطلوب ... » . وقد أدى هذا الموقف من جانب بيبرس الى عقد هدنة مع أوفات (٢٣) .

والواقع أننا لا نقصد أن نقدم هنا رسدا زمنيا تتابعيا (كرونولوجى) لأخبار الحروب بين مسلمى الحبشة والملوك الأحباش المسيحيين ، ولكن ما يهمنا أن نضع بعض نماذج التدخل المصرى فى عصر سلاطين المالك لصالح المسلمين . ففى سنة ٧٢٦ هـ وصلت رسالة من نجاشى الحبشة « عمدا صهيون » (١٤ — ١٣٤٤ م) الى السلطان الناصر « محمد بن قلاون » يعبر فيها النجاشى عن غضبه لما حدث من تخريب لكنائس الآباط ، ويهدد باضطهاد المسلمين فى الحبشة ، ويسد مجرى النيل حتى لا يسير الى مصر فسخر منه السلطان ورد رسله . وربما كان موقف الناصر محمد ناجما عن الأخبار التى وصلتته عن هجوم الملك الحبشى على المسلمين وهو ما جعله يأمر البطريك بالتدخل (٢٤) .

(٢٢) ابن عبد الظاهر ، تشرىف الأيام والعصور ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١١٩ — ١٢٠ ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ، ص ٣٨٣ — ٣٨٧ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

(٢٣) حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية ، ص ٤٥٢ — ٤٥٤ ، زاهر رياض ، الاسلام فى أثيوبيا ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ، سعيد عاشور ، « بعض أضواء جديدة على العلاقات بين مصر والحبشة فى العصور الوسطى » ، المجلة التاريخية المصرية/١٤/١٩٨٦ ، ص ١٦ .

(٢٤) المقرئى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ . وربما كان هذا الموقف ناتجا عن وجود البعثة الدومينيكانية التى أرسلتها البابوية الى أفريقيا للبحث عن القديس جون ومملكته الأسطورية — انظر : الشاطر بصلى : تاريخ وحضارات السودان ، ص ١٢٠ — ١٢٤ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

وفى عهد النجاشى « سيف أرعد » (١٣٤٤ — ١٣٧٢ م) تم القبض على عدد من التجار المصريين والمسلمين فى الحبشة ، وأعدم بعضهم على حين أرغم البعض الآخر على اعتناق المسيحية ، كما سارت فرقة من الجيش الحبشى لاعتراض طريق القوافل التجارية بين مصر والحبشة . ولكن السلطان الناصر « حسن بن محمد بن تالون » تدخل فى حل المشكلة التى تسبب فيها « الأمير شيخو » وطالب من البطريرك مكتبة ملك الحبشة وأرسل له عددا من الأساقفة (٢٥) .

وفى عصر الجراكسة استمرت العلاقات السياسية بين مصر والحبشة على ما هى عليه من تذبذب بسبب الروابط الدينية التى تربط بين مسلمى الحبشة ومصر . وكانت أولى الحوادث فى صفحة العلاقات السياسية بين الدولتين هى تلك الحادثة التى أشارت إليها المصادر المعاصرة (٢٦) وملخصها أن نجاشى الحبشة « داود بن سيف أرعد » (١٣٨١ — ١٤١١ م) قد هاجم حدود مصر الجنوبية سنة ٧٨٣ هجرية (١٣٨١م) وعاث فيها فسادا « ... ونال أهل الاسلام منهم بلاء كبير ... » . فقام الأمير الكبير برقوق (الذى اعتلى العرش ، بما بعد تحت لقب الظاهر برقوق) باستدعاء الأنبا متاؤس بطريرك الاقباط وأمره بكتابة رسالة الى النجاشى ينهيه فيها عن مهاجمة مصر مرة ثانية . وعلى الرغم من أن كلا من « المقريزى » « وابن حجر » يذكران أن سفارة سافرت من مصر الى الحبشة برسالة حملها « برهان الدين الدمياطى » ، وعادت بعد ثلاث سنوات (٢٧) ، فإننا نميل الى رأى الشاطر بصيلى الذى يستبعد قيام الأحباش بهذه الغارة لبعد المسافة ووعورة الطريق (٢٨) .

وعلى أية حال ، فإن العلاقات بين الدولتين سادها طابع السود

(٢٥) كان الأمير شيخوقد سجن البطريرك فى الاسكندرية فاهتاج ملك الحبشة لذلك وأخرج السلطان عن البطريرك وراسل ملك الحبشة بقصد التخفيف عن المسلمين هناك . (الشاطر بصيلى ، المرجع السابق ، ص ٥٦) .

(٢٦) المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ — ٤٤٧ .

(٢٧) ابن حجر ، انباء الفهر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ، المقريزى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٤٧ .

(٢٨) الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٢٤ — ١٢٥ .

والاستقرار فى عهد السلطان « الظاهر برقوق » وابنه « الناصر فرج » كما يبدو واضحا من أخبار السفارات المتبادلة التى حملتها لنا مصادر تلك الفترة ، فقد سافر « برهان الدين الدمياطى » الى الحبشة كما أسلفنا القول وعاد منها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) . وبعد وصوله بعامين جاء الى مصر وفد حبشى بهدايا فاخرة « ... فيها من طرائف بلادهم ، ومن جملتها قدور ملئت بذهب صيغ على قدر الحمص ... » (٢٠) كذلك فان لدينا وثيقة هامة هى نص خطاب النجاشى « داود بن سيف أرعد » للسلطان برقوق (٢١) . وفى هذه الوثيقة يقرر الملك الحبشى أن بلاده مفتوحة أمام التجار والمسافرين ، ويذكره بما كان بين جده « عبد سنون » ، والملك « الناصر محمد بن قلاوون » من محبة واتفاق . ويخبره بوصول رسالة البطريك متاؤس والرسالة التى حملها « برهان الدين الدمياطى » . ثم يدخل فى صميم موضوع رسالته حين يقول انه لا يلحق بالمسلمين فى بلاده أى أذى ، وأن أى أخبار تصل السلطان المصرى عن اضطهاد المسلمين فى الحبشة أخبار كاذبة . ومن الطريف انه يزعم انه يأمر قومه بصرف المياه الزائدة عن النيل حتى لا يصل الى مصر ويفرقها . وبعد أن يتحدث عن حسن معاملة التجار الواردين من الديار اليمنية والمصرية والحجازية يقول ان المسلمين فى بلاده ينعمون بالأمان . ثم يطلب حسن معاملة النصارى بالديار المصرية ويهدد صراحة « ... ومهما فعلتموه مع أبينا البطرك واخوتنا النصارى من الخير والشر ، فنحن فاعلوه مع سائر المسلمين فى حوزتنا وفى سلطاننا ... » . ثم يختم الرسالة باستعراض قوة بلاده وعظمتها .

ولكن العلاقات ما لبثت أن توترت من جديد بين مصر والحبشة بسبب الهجمات التى شنها هذا النجاشى وخلفاؤه ضد مسلمى امارات الطراز الاسلامى منذ سنة ٨٠٥ هجرية (١٤٠٢ م) وربما يكون السبب فى هذا التحول ما طرأ على تسليح الجيش الحبشى وتدريبه من تحسن وتطور بفضل

(٢٩) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢٨٩ .

(٣٠) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٥٥٥ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٣١) ضمن مجموعة سيرة بلام يواصف — مخطوط بمكتبة الأقباط الارثوذكس ، نقلا عن كتاب : أمين حكيم عبد السيد ، قيام دولة المهاليك الثانية ، ص ١٧٦ — ص ١٨٠ .

مساعدة بعض امراء المماليك وبعض ارباب الادارة المصريين الذين رحلوا الى بلاط النجاشي . فقد ذكر المقرئى أنه فى عهد النجاشي « اسحق بن داود بن سيف أرعد » (١٤١٤—١٤٢٩ م) فر والى قوص المدعى « الطنبغا مفرق » الى بلاط هذا الملك ، وعلم أتباعه لعب الرمح ، ورمى النشاب وغير ذلك من ادوات الحرب ، ثم لحق به بعض المماليك الجراكسة ممن لديهم الخبرة فى ترتيب خزائن السلاح (الزردخانة) « ... فعمل له زردخانه ملوكية ، وتوجه اليه مع ذلك رجل من كتاب مصر الأقباط النصارى — يقال له فخر الدولة — فرتب له مملكته ، وجبى له الأموال ، وجند له الجنود ... » (٣٢) .

فقد شن هذا الملك هجوما عنيفا ضد امارات الطراز الاسلامى سنة ٨٢٢ هـ مما جعل السلطان المؤيد شيخ يتخذ بعض الاجراءات ضد المسيحيين فى مصر والشام (٣٢) وفى سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) قام السلطان الجديد « برسباى » باغلاق كنيسة القيامة فى بيت المقدس انتقاما مما جرى للمسلمين فى الحبشة ، وبسبب غارات القراصنة الكتلان على الشواطىء العربية فى تلك السنة . وكان رد الفعل عنيفا من جانب النجاشي اسحق بن داود (جبرا مصقل) الذى وضع السيف فى رعاياه المسلمين ، وهاجم اوفات وأهان المساجد والمسلمين . وهاج برسباى عندما بلغته تلك الأنباء . وهدد بمذبحة عامة ضد جميع رعاياه المسيحيين (٣٤) .

ويبدو ان هجوم ملوك الحبشة المسيحيين على دول الطراز الاسلامى قد بلغ مستوى عاليا من العنف بسبب تطور الجيش الحبشى بفضل الخبرة المصرية ، بحيث فر ولدا « سعد الدين المجاهد » الى اليمن سنة ٨٢٥ هـ حيث استقبلهما سلطان تفر فى جنوب اليمن واكرمهما وجهازهما بمائتى فارس

(٣٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩ .

(٣٣) ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٣ ، ص ١٩٤—١٩٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٤٩٢ — ٤٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٨١ — ٨٤ ، العينى عقد الجمان ، حوادث ٨٢٢ هـ (مخطوط) .

(٣٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٢٦٠ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٦٤٩ .

بعتادهم فعادا الى الحبشة لمواصلة الحرب ضد الأقباش (٢٥) . وفى سنة ٨٣٣ هـ هاجم نجاشى الحبشة أوفات « ... فقتل وسبى وأسر عالما عظيما ، وكان ممن أسره منصور ومحمد ولدا السلطان سعد الدين بن أحمد بن على ابن ولصم الجبرتي .. ملك المسلمين بالحبشة ... » (٢٦) .

ولكن النجاشى « زرعاً يعقوب » (١٤٣٤ — ١٤٦٨ م) أرسل سفارة تحمل طلبا بإعادة العائلات الودية بين مصر والحبشة ، ووصلت السفارة سنة ٨٤٧ هجرية (١٤٤٣ م) ، وتضمنت الرسالة بعض عبارات التهديد التى أثارت غضب السلطان « دقمق » (٢٧) . فقد جاء بها ما نصه « ... وليس يخفى عليكم ولا على سلطانكم أن بحر النيل ينجر إليكم من بلادنا ، ولنا الاستطاعة على أن نمنع انزيادة التى تروى بها بلادكم عن المشى إليكم ، لأن لنا بلادا انفتح لها أماكن سوقانية يتصرف فيها الى أماكن أخرى قبل أن يجيئكم ، ولا يمنعا من ذلك الا تقوى الله والشفقة على عباده ... » .

وغضب السلطان جقمق « ... ولكنه سلك طريقة وسطى ... » وأرسل سفارة بهدية الى الحبشة ، رفض فيها مطالب ملك الحبشى ، ولم يشأ الاستماع الى دعاوى النجاشى « زرعاً يعقوب » بشأن التسامح تجاه المسلمين الأقباش ، لأنه كان يعرف تماما جهوده من خلال رجال السلك الكهنوتى من المصريين والأقباش فى مجمع فلورنسا للحصول على مساعدة أوروبا لتدمير القوى الاسلامية فى الحبشة (٢٨) .

والواضح من سياق الأحداث أن « زرعاً يعقوب » لم يرض برد السلطان الملوكى فاحتجز الرسول المصرى وهدده بالقتل ، ثم أرغم الرسول المصرى على الركوب لميدان القتال حيث شاهد بنفسه هزيمة « شهاب الدين » ملك عدل وذبح أخيه « خير الدين » . وكان رد الفعل عنيفا لدى « جقمق » ،

(٣٥) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى ، ج ٢ ، ص ٥٦٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٨٣٨ — ٨٤٠ .
(٣٦) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٣٤٩ .
(٣٧) انظر نص رسالة الملك الحبشى فى : السخاوى ، التبر المسبوك ، ص ٦٧ — ٧١ .

(38) Ziada, Foreign relations, no. 282-85.

وانظر ما يلى عن مجمع فلورنسا فى الصفحات التالية .

وكنه سمح للتشاور المنعقل أن يستمر لأنه لم يكن يملك غير ذلك ، فأمر بطريك الأقباط بمكاتبة ملك الحبشة . وبعد ذلك قرر « جتقى » الدخول فى علاقة مباشرة مع مسلمى الحبشة بزعامة « محمد بن شهاب الدين » سلطان أوغات الذى طلب من السلطان الملوكى أن يفعل ما فيه خير الاسلام دون النقيذ بموقفهم فى الحبشة (٢٩) .

هكذا ، كانت السفارات المتبادلة بين مصر والحبشة تحاول استخدام الوسائل السلمية والدبلوماسية فى صالح المسلمين فى شرق الحبشة من جهة ومسيحي مصر من جهة أخرى . وإذا كانت مصر فى عصر سلاطين المماليك قد استخدمت أساليب الدبلوماسية والضغط السياسى للخفية ، عن مسلمى الحبشة ، فان ملك الحبشة التابع فى معاقلة الجبلية الحصينة عند منابع النيل الأزرق كان من أشد المدامعين عن أقباط مصر النصارى حماسة بسبب العلاقات الوثيقة بين الكنيسة المصرية والكنيسة الحبشية التى كانت بمثابة فرخ من أفراخها . ولم تقف جهود ملك الحبشة عند حد الرسائل الودية والسفارات المحملة بالهدايا ، وإنما تعدت ذلك الى التهديد بمنع مياه النيل عن مصر ، ثم محاولة صياغة مشروعات صليبية مشتركة مع الغرب الأوروبى ضد مصر والمنطقة العربية عامة . وتلك قصة تستحق أن تروى .

ترجع العلاقة بين الكنيستين ، الحبشية والمصرية ، الى النصف الاول من القرن الرابع الميلادى حين استطاع « فرومونتوس » تحويل الحبشة الى

(٣٩) السخاوى ، القبر المسبوك ، ص ٦٧—٧٣ .

(٤٠) بعد مرسوم ميلانو ٣١٣ م تسربت المسيحية الى الحبشة بفضل العلاقات التجارية مع الدولة البيزنطية ، ولكن تأسيس الكنيسة الحبشية يرجع الى أخوين من صورهما : فرومونتوس وأيدسيوس اللذين كانا ضمن بعثة تبشيرية قتلت كلها ولم ينج سواهما ، وتمكنا من اقناع ملك اكسوم باعتراف المسيحية وعين فرومونتوس أول أسقف لكنيسة الحبشة . واعتنق الملك عزانة المسيحية وجعلها دين الدولة الرسمى حوالى منتصف القرن الرابع . ومنذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية كان مطران كنيسة الحبشة من الأقباط — انظر :

سميد عاشور ، بعض أضواء جديدة ، ص ٨ — ١٠ ، طرخان ، الاسلام والممالك المسيحية ، ص ١١ — ١٤ .

Atiya, The Crusades in the later Middle Ages, p. 276.

المسيحية الأرثوذكسية . ومنذ اعتماد فرومونتوس ورسامته مطرانا للحبشة ، أصبح بطاركة الاسكندرية يولون اساقفة الحبشة (٤٠) . ومنذ قيام المسيحية فى الحبشة اعتبر الأقباش أنفسهم أبناء الكنيسة القبطية فى مصر ، كما اعتبروا أن بطريك الاسكندرية زعيمهم الروحي (٤١) .

ومنذ ذلك الحين كانت الحبشة دائما تحتاج الى الكتب الدينية من مصر ، فضلا عن أن رأس الكنيسة الحبشية كان مطرانا قبطيا يعينه بطريك الأقباط الأرثوذكس فى مصر ، وكانت الأوامر السلطانية — فى عصر سلاطين المماليك — تخرج للبطريك بارسال المطران المطلوب الى الحبشة بعد أن ترد رسالة النجاشى فى طلب ذلك ومعها الهدايا والتحف الثمينة . وكان هذا المطران يتمتع باحترام كبير من جانب الأقباش ، كما أن وجوده فى بلادهم كان على جانب كبير من الأهمية نظرا للمهام الاجتماعية والدينية التى ارتبطت بالكنيسة فى حياة الأقباش والتى لم يكن من الممكن انجازها فى غياب رأس الكنيسة ، إذ أن غيابه كان يعرض الكثير من الشؤون الاجتماعية فى الحبشة لخطر الانهيار (٤٢) . وقد ذكرت المصادر التاريخية العربية ما يدل على أهمية بطريك الأقباط الأرثوذكس بالنسبة للأقباش ، فقد ذكر القلقشندي أن البطريك « .. صار لديهم كالخليفة على دين النصرانية عندهم يتصرف فيهم بالولاية والعزل ، ولا تصح ولاية ملك منهم الا بتوليته .. » (٤٣) كما ذكر « ابن فضل الله العمري » أنه لا يصح تعمد معمودى الا باتصال من البطريك (٤٤) . وقد ذكر المقرئى عبارة عامة تدل على مدى تعصب الأقباش لذهب الطبيعة الواحدة الذى اعتنقته الكنيسة المصرية ، فقال ان الأقباش « .. يعتنقون مذهب اليعقوبية تشددا زائدا ... » (٤٥) .

(41) Leo Honsberry, «Ethiopian Ambassadors to Latin Courts and Latin emissiomm aries to Prester John», in : Ethiopia Observer, IX, 2, 1965, p. 91.

- (٤٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٣٠ — ٣١ ، المقرئى ، الامام ، ص ٣ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ، ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ص ٤٧ من المقدمة .
- (٤٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
- (٤٤) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ٣٠ .
- (٤٥) المقرئى ، الامام ، ص ٣ .

ومن مظاهر تجليل الملك الحبشى لأوامر بطريرك الأقباط أنه حين كان يرد اليه كتاب البطريرك يأمر بأن يتلى فى الكنيسة يوم الأحد ، والملك واقف فلا يجلس سوى بعد الفراغ من قراءته وتنفيذ أوامر البطريرك الواردة فيه(٤٦) .

كذلك عرفت الحبشة النظام الديرى نتيجة علاقاتها بمصر منذ القرن الخامس الميلادى وتأسست عدة أديرة للرهبان الأقباش ، كما أن الأقباش كان لهم دير فى بيت المقدس — الذى كان تحت الحكم المصرى آنذاك — ووجد منهم عدد فى أديرة مصر(٤٧) ، بل أن الأقباش اليعاقبة كان لهم دير مستقل فى وادى النطرون(٤٨) . وهو ما يدل بوضوح على مدى عمق الرابطة الدينية التى كانت تربط الأقباش بالكنيسة المصرية .

من ناحية أخرى ، حرصت السلطات المملوكية على أن تهسك بخيوط العلاقة بين الأقباش والكنيسة المصرية فى يدها . ويستناد من الوثائق التى حفظتها لنا مؤلفات المؤرخين المعاصرين أن السلاطين كانوا يحتاطون كثيرا على أمر هذه العلاقة خوفا من أن تستغل ضد الدولة ومصالحها لا سيما عندما بدأت تصل الى المصريين أنباء عن مؤامرات الأقباش ضد المصريين والمسلمين لفتوى المنطقة من الشمال والجنوب .

ولدينا وثيقة تجسد هذه المخاوف ، وهى عبارة عن « توقيع(٤٩) لبطرك النصارى اليعاقبة » يرجع تاريخه الى سنة ٧٦٤ هجرية ، ويهمنى التحذير

-
- (٤٦) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ص ٣٠٩ .
(٤٧) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (دار المعارف ١٩٧٩ م) ، ص ١٣٠-١٣٢ .
(٤٨) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٠-٥٠١ .
(٤٩) التوقيع : وجمعه تواقع ، معناه الأساسى فى اللغة وضع خاتم أو علامة أو شعار فى أسفل وثيقة رسمية ، ثم اكتسبت الكلمة معنى اصطلاحيا فى العصر الأيوبرى والفاطمى بحيث يعنى منشور ادارى عام صادر عن السلطان ويحتاج الى توقيعه أو علامته أو كليهما معا — انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٣٨٥ ، قاسم ، أهل الذمة ، ص ٦٦ — وكذلك :

Bosworth, Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluk Egypt and Syria, JMES, vol. 3, 1972, pp. 199-200.

الصادر الى بطريرك البعاقبة فى الوصية الصادرة لبطريرك البعاقبة بعد هذا التوقيع تحمل التعليمات المتعلقة بالوظيفة . فالدولة فى هذه الوثيقة توجه تحذيرها المشدد للبطريرك بالا يحاول الاتصال سرا بالحبشة « . . . حتى اذا قدر لا يشتم اطراف الجنوب . . . » (٥٠) وبالضرورة كان اهتمام دولة سلاطين المماليك باستقرار واستمرار عزل الكنيسة القبطية عن القوى الخارجية كبيرا . ومع أن الأقباط كان لديهم تراث طويل من العداء المذهبى تجاه مسيحيى الغرب الأوربى وذكريات اليمة عن التعذيب الذى نال الأقباط من البيزنطيين ، وعلى الرغم من أن امكانية اعتبار القبط جواسيس يعملون لصالح القوى المسيحية الخارجية لم تكن واردة على الاطلاق ، فان الدولة الملوكية حرصت على أن تكون علامة الكنيسة المصرية بالاحباش من خلالها .

ونستطيع من خلال الوثائق والمصادر التاريخية المتوفرة لدينا أن نتابع جهود الاحباش فى صالح المسيحيين المصريين . ولدينا طائفة من أخبار السفارات الحبشية التى جاءت الى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك تطلب تعيين مطران جديد ، أو بعض الكتب ، أو تطلب السماح لبعض الحجاج الأقباط بزيارة بيت المقدس ، أو إعادة فتح بعض الكنائس والتخفيف عن الأقباط . . . وما الى ذلك .

والجدير بالذكر أن العلاقات المصرية/الحبشية كانت قد توقفت فترة حوالى نصف قرن ، منذ بداية القرن الثالث عشر ، بسبب اضطراب الأحوال الداخلية فى الحبشة ، ولكن الامبراطور يكونو أملاك الذى اعتلى المرش سنة ١٢٧٠ م ، أرسل يطلب مطرانا ويعيد العلاقات ، ولكن السلطان الظاهر بيبرس رفض طلبه ، كما أوضحنا من قبل (٥١) . ثم أراد النجاشى «يجباصهيون» أن يصلح العلاقات بين البلدين لأن والده كان قد عين مطرانا من السوربان لرئاسة الكنيسة الحبشية مما أثار حفيظة شعب الحبشة ضد النجاشى « يكونو أملاك » . وأرسل « يجباصهيون » وفدا برئاسة عربى اسمه

(٥٠) نص التوقيع فى القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ١١ ، ص ٣٩٧—
٣٩٩ . ونص « الوصية » فى ابن فضل الله العمري : التعريف ، ص ١٤٦ .
(٥١) انظر ما سبق وأيضا ، النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ورقة ٢١٩ (مخطوط) .

« يوسف بن عبد الرحمن » ، ومعه ثلاثة كتب ، أولها للسلطان « المنصور قلاون » تاريخه شهر رمضان ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠ م) .

وهذه الوثيقة التى حفظها لنا « ابن فضل الله العمري » (٥٢) تكشف عن مدى اهتمام الأقباط بالروابط الدينية التى تربطهم بالكنيسة المصرية ، وطلب ارسال مطران لاصلاح بلاد الحبشة . وفى هذه الوثيقة يقول النجاشي انه ليس مثل والده فى عدائه للمسلمين « ... واننى احفظ المسلمين فى جميع مملكتى ومولانا يحفظ النصارى فى بلاده حتى نصير مشورة واحدة ، ويذا واحدة ، وتتواصل الرسل من الجهتين ... » .

وكان الكتاب الثانى مرسلا الى البطريك « يؤنس السابع » بطريك الأقباط الأرثوذكس وهذه الوثيقة (٥٣) . يعتذر النجاشي فيها عن أن والده أحضر مطارنة من السوربان « ... وهؤلاء السريان المطارنة الذين عندنا من غير مصر بغضناهم وما حبيناهم ، ولأجل محبتنا فى بطركية مصر ما خلبناهم عندنا وطردهناهم ، وما كانوا قعدوا عندنا الا بوالدنا لأنه ما كان عنده أحد من جهتك ... » .

أما الكتاب الثالث ، فهو الرد الذى كان السلطان « الظاهر بيبرس » قد أرسله الى « يكونو أملاك » فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٣ هـ .

وفى سنة ٧٢٦ هجرية وردت رسل النجاشي « عمدا صيون » الذى خاض حروبا متواصلة ضد مسلمى الحبشة تطلب من السلطان « الناصر محمد بن قلاون » إعادة فتح الكنائس ومعاملة المسيحيين بالحنونة ويهدد بانسهاد المسلمين فى الحبشة وبتحويل مجرى نهر النيل لتجربع المصريين (٥٤) .

وعلى الرغم من ذلك ظلت الرسل والسفارات ترد الى القاهرة طوال عصر سلاطين المماليك ، فلدينا أنباء عن سفارة أرسلها النجاشي « يعقوب

(٥٢) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ١٧٠ — ١٧٢ . نسخة خطاب صاحب الحبشة يجباييون (صهيون) والملقب أيضا سلمون سليمان حكم (١٢٨٤ — ١٢٩٣ م) .

(٥٣) ابن فضل الله العمري ، التعريف ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٥٤) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ .

ابن داود بن سيف أُرعد « سنة ٨٤١ هجرية تحمل كتابا منه ومعه هدية ما بين ذهب ، وزباد ، (وهو نوع من العطور التي اشتهرت بها الحبشة) ، وغير ذلك » ... فتضمن السلام والتودد والوصية بالنصارى وكنائسهم « (٥٥) . وفى سنة ٨٤٧ هـ جاءت رسل الحبشة بكتاب يتضمن التهديد بقطع النيل وطلب معاملة النصارى بالحنى (٥٦) ، وفى سنة ٨٥٧ هـ وفدت رسل ملك الحبشة الى السلطان « جقمق » الذى استقبلهم على سرير المرض ثم توفى فاستقبلهم رسميا ابنه « المنصور عثمان » (٥٧) . وفى عهد السلطان الأشرف تاييتباى وفدت سفارة أخرى الى مصر لنفس الغرض (٥٨) .

بعد ذلك انقطعت رسل الحبشة عن القدوم الى مصر لمدة تقرب من ست وثلاثين سنة ٨٨٦ — ٩٢٢ هجرية . وفى السنة الأخيرة وفدت سفارة حبشية ومعها وفد من الحجاج الأحباش فى طريقهم لى بيت المقدس . ويصف لنا المؤرخ ابن اياس آخر سفارة حبشية استقبلتها القاهرة فى عصر سلاطين المماليك فيقول ان السفارة ضمت خمسة من أمراء الحبشة « .. والباقي لبط ، فيهم من هو عريان الرأس ، وعلى رأسه شوشة بشعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة ، وفى أياديهم أساور ذهب .. وكان مجموع ذلك الحبشة الذى حضر الى مصر نحو ستمائة انسان .. وكان صحبتهم البترك الكبير . واصطفت جميع النصارى الذين فى مصر للفرجة عليهم .. » (٥٩) .

ويبدو أن الهدية التى جلبوها معهم كانت ضئيلة القيمة بحيث وبخ السلطان من أحضرها وأحضر قوائم بهدايا ملوك الحبشة الى أسلافه من سلاطين المماليك . والراجح لدينا أن تدهور مكانة مصر العالمية وضعفها البادى كان وراء استهانة ملوك الأحباش بالسلاطين وهو ما انعكس على تفاهة الهدية التى كانت فى عرف السياسة فى ذلك الزمان عنوانا على التقدير والاحترام . كما أنه يبدو أن اندماج ملوك الحبشة فى المشروعات الأوربية لحصار المسلمين كان وراء ذلك الموقف .. وتلك قصة أخرى .

-
- (٥٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٠٢٤ .
 (٥٦) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٥ ، ص ٧٤٥ — ٧٤٦ (مخطوط) .
 (٥٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ، ص ٣٣ .
 (٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ .
 (٥٩) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٠ — ١١ .

وهكذا لم يكن ملوك الحبشة الأقوياء قادرين على تجاهل ما كان يتعرض له المسيحيون في مصر وبلاد الشام ، أحيانا ، من متاعب تحت حكم سلاطين المماليك . وقد سلك ملوك الحبشة طرقا أربع لصالح الأقباط ، أولها : التهديد باغلاق منابع النيل الأزرق لمنع مياه الفيضان من الوصول الى مصر ، وثانيها : شن الحملات الانتقامية على مسلمي الحبشة ، وثالثها : ارسال السفارات الودية المحملة بالهدايا الى سلاطين المماليك ، ورابعها : محاولة التحالف مع القوى الأوروبية ضد مصر . وبينما لم تثمر الطريقة الأولى والطريقة الأخيرة شيئا ، آتت اضطهادات مسلمي الحبشة بنتائج عكسية تماما ، على حين استطاعت السفارات والرسائل الودية تحقيق بعض النتائج الطيبة لصالح الأقباط .

يبقى الآن نقطة أخيرة في هذه الدراسة ، وهي الاتصالات الحبشية مع بلدان أوروبا بقصد العمل المشترك ضد مصر . ويبدو أن صعود الأسرة السلিমانيّة على عرش الحبشة ، التي بدأت بحكم النجاشي يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) ، كان بداية لصحوة دينية وسياسية في الحبشة ، فقد زاد نشاط المبشرين بين القبائل الوثنية في الحبشة ، كما بدأ الهجوم الحبشي المنظم ضد امارات « الطراز الاسلامي » . ومن ناحية أخرى بدأ ملوك الحبشة يحاولون الاتصال بالقوى الصليبية العاملة في البحر المتوسط لتطويق مصر من الشمال والجنوب . وربما كانت المشروعات الصليبية المتأخرة ، والتي نتجت عن نجاح المصريين في القضاء على الوجود الصليبي فوق الأرض العربية في فلسطين أواخر القرن الثالث عشر ، وراء تلك الروح العدوانية التي غلبت على سياسة الأحباش .

وغنى كثير من أخبار الرحلات التي حفظها لنا الزمن ، قبل الحروب الصليبية وبعدها ، يتحدث الرحالة الأوروبيون عن أنهم قابلوا حجاجا من الأحباش في الأرض المقدسة . كما أن المصادر التاريخية تخبرنا عن أن كثيرين من الأمراء الصليبيين قد دفنوا في كنيسة الأحباش القريبة من الضريح المقدس (٦٠) . بيد أن هذا لم يكن شكلا للعلاقة الوحيدة بين الأوروبيين والأحباش في ذلك الزمان . فقد شاعت في أوروبا في القرن الرابع عشر فكرة

أن نجاشي الحبشة هو « برسترجون » الذى ذاعت حوله قصص خيالية كثيرة منها أنه يمكنه فتح بوابات مياه النيل لتفرق مصر . ولكن ما يلفت النظر هنا أن الأوروبيين لم يحاولوا قبل الحملة الصليبية السابعة أن يبذلوا أى جهد لاكتشاف مكان هذا الحليف المسيحى القوي (٦١) . وحتى نهاية الحروب الصليبية لم يكن هناك مبعوثون الى بلاد النوبة أو الحبشة التى كان الأوروبيون يعتقدون أن مملكة برسترجون فى احداها أو فى الهند . وعندما عرفت أوروبا أن ملك الحبشة المسيحى هو « برسترجون » ، اكتشفوا أنه ليس ثريا أو قويا كما صورته الأسطورة ، ولكنه مسيحى . وكان هذا كافيا بالنسبة لمشروعات البابوية .

ووفقا لوثيقة هامة من وثائق البابوية ، يتضح أن اثنى عشر من بابوات روما الذين جلسوا على عرش القديس بطرس فيما بين سنة ١١٥٩ م وسنة ١٤٢٤ م ، أرسلوا خطابات ملوك الحبشة خلال هذه الفترة . كما أن وثائق بابوية ورهبانية أخرى تخبرنا أن عددا كبيرا من الأوروبيين سافروا فرادى ، أو ضمن بعثات دينية ، أو دبلوماسية ، أو عسكرية ، الى مملكة النوبة المسيحية ومملكة الحبشة فيما بين سنة ١٢٥٤ م وسنة ١٦٣٢ م . وقد أمضى بعضهم بقية عمره فى الحبشة ، على حين عاد الآخرون الى بلادهم ليقدموا انطباعاتهم من خلال الكلمة المكتوبة ، أو الحكايات الشفوية ، عن بلاد الحبشة البعيدة (٦٢) .

فى سنة ١٢٧٥ م قام « يكونو أملاك » مؤسس الأسرة السلیمانية بإيفاد سفارة الى الامبراطور البيزنطى « ميخائيل الثامن باليولوجوس » ومع السفارة

(61) E. Denison Ross, «Prester Johs and the Empire of Ethiopia» in : Newton, Arthur Percival (ed.), Travel and travellers of the Middle Ages (London 1930). p. 180.

(62) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90;

فى سنة ١٣١٦ أرسل البابا يوحنا الثانى والعشرون ثمانية من الرهبان الدومينكان الى الحبشة ، وقامت احدى الرهبان بتأسيس دير للبنات ، واستطاع الرهبان أن يوطدوا علاقتهم بالأحباش — انظر : الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ، ص ١٠٨ — ١١٠ ،

Ross, «Prester John», pp. 192-193.

هدية نادرة . وبعد ذلك بثلاثين سنة جاءت سفارة حبشية من حوالى ثلاثين
نردا الى البابا « كليمنت الخامس » فى افينون ووصلت سنة ١٣٠٨ م . وفى
١٤٠٢ م شهدت مدينة البندقية ضجة واثارة بسبب قدوم سفارة حبشية معها
عدد من الفهود الانريقية على سبيل الهدية . كما حدث فى سنة ١٤٠٨ م
أن قام الحجاج الأحباش بزيارة بولونا فى طريقهم الى روما بعد زيارة بيت
المقدس . وبعد ذلك بتسع عشرة سنة قام « الفونسو الخامس » ملك
اراجون باستقبال اثنين من السفراء الأحباش فى بلاطه فى بلنسية بحضور
المنسوب البابوى الكاردينال « فويكس » الذى قدم تقريره عن الزيارة للبابا
« مارتن السادس » . وفى ١٤٣١ م زارت روما سفارة حبشية استقبلها
البابا « يوجين الرابع » استقبالا حافلا (١٢) .

ويبدو أن الأمر لم يقف عند حد المشاورات ، إذ أن كتب التاريخ تخبرنا
أن الهجوم الغادر الذى شنّه ملك قبرص الصليبي « بطرس لوزينان » على
الاسكندرية سنة ٧٦٧ هـ/ ١٢٦٥ م كان جزءا من خطة عامة أعدت على أساس
هجوم قوات بطرس من الشمال وهجوم القوات الحبشية من الجنوب ، ولكن
انسحاب الصليبيين السريع من الاسكندرية جعل ملك الحبشة يتردد العودة
بعد أن خسر عددا كبيرا من رجاله بسبب وعورة الطريق (١٤) . وعندما
سمع اسحق الاول نجاشى الحبشة بهزيمة مسيحيي قبرص وأسر ملكها على
أيدى القوات المصرية سنة ١٣٠٠ هـ دعا المسيحيين فى أوروبا الى شن حملة
صليبية شاملة من الشمال والجنوب ، كما كتب الى ملوك الفرنجة محرضا
اباهم على استئصال المسلمين . وكان رسوله الى الغرب الأوربي تاجر مسلم
هو « الخواجا نور الدين على التبريزي العجمي » الذى حمل رسالة ملك
الحبشة الى ملوك الفرنج « ... عندما بلغه أخذ قبرص وأسر ملكها جينوس ،
يحثهم فيه على القيام لازالة دين الاسلام ، وغزو المسلمين ، واقامة الملة
العيسوية ونصرتها ، وأنه يسير فى بلاد الحبشة فى البر بعساكره ، وأن
الفرنج تسير فى البحر بعساكرها ... » واتفق معه على كل التفاصيل
حتى رى جنود الحملة . ولكن التاجر وقع فى قبضة السلطات المصرية أثناء

(63) Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 90; Ross,
«Prester John» , p. 193.

عودته في ميناء الاسكندرية ، ومعه راهبان حبشيان ، وأعدم سنة ٨٣٢ هـ (١٤٢٩ م) (٦٥) .

وما تزال توجد بعض السجلات والذكريات عن الدور الذي لعبه السفراء الأحباش في مشرعر آخر أكثر طموحا ، وأقل نجاحا ، في تاريخ التكتلات المسيحية ضد المسلمين في العصور الوسطى . وهو مجمع « فلورنسا الكوني » الذي دعا اليه ابابا يوجين الرابع (٣١ — ١٤٤٧ م) على أمل أن يجد وسيلة يمكن بها تجميع المسيحيين في اتحاد كبير بقيادة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية يقوم بحملة موحدة ضد مسلمي الشرق . وقد اجتمع هذا المجمع أولا في فرازا ، ثم في فلورنسا وأخيرا في روما فيها بين سنة ١٤٣٨ وسنة ١٤٤٢ م . وكان البابا متأثرا مثل سائر الأوربيين آنذاك بما يشاع عن القوة العسكرية الفاتكة لمملكة برسترجون ولذلك كان شغوفًا بمشاركة الأحباش في هذا الاتحاد المسيحي الكبير (٦٦) .

وفي ،طار ذلك المشروع أرسل البابا واحدا من الرهبان الفرنسيين هو « البرتو دي سارتانو » الى المسيحيين في المنطقة العربية يدعوهم الى المشاركة في مشروع الاتحاد المسيحي . ومن بين الخطابات التي حملها « سارينو » خطاب الى « حنا الحادي عشر » بطريرك الأتباط في مصر ، و« برسترجون » ملك الحبشة . ولم يتحمس البطريرك القبطي للمشروع البابوي . وطلب « سارتيانو » من السلطان « الأثراف برسباي » الاذن بالسفر الى الحبشة ، ولكن السلطان الذي كان قد أسر ملك قبرص قبل سنوات قليلة وجعله يمشي عاري الرأس مقيدا بالسلاسل خلال شوارع القاهرة ويقبل الأرض بين قدميه ، رفض طلب الراهب الفرنسيين الذي سافر الى القدس حيث ناقش مشروع الاتحاد مع « نيقوميديوس » رئيس دير الأحباش في المدينة المقدسة .

وفي سنة ١٤٤١ م خرج الوفد الحبشي لحضور المجمع الكنسي « الكوني » ، وكان الوفد يضم اثني عشر راهبا حبشيا ومرشدهم الذي كان

(٦٥) المقریزی ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٧٩٥ — ٧٩٧ ، ابن تغرى بردی ، النجوم ، ج ١٤ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٦ .
(66) Leo Hansberry, « Ethiopian Ambassadors », p. 91.

تاجرا ايطاليا عاش عدة سنوات فى المنطقة العربية . ووصلت الأنباء الى ايطاليا تسبق الوفد الحبشى . وكان البابا يأمل فى انضمام الأحباش الى الاتحاد ضد المسلمين(٦٧) . ولذلك أمر بأن ينقل مكان الجمع الى روما حتى تكون « ... السفارة العظيمة التى أرسلها امبراطور الحبشة العظيم السامى ... » فى رحاب المدينة الخالدة روما « ... عاصمة العالم المسيحى كله ... » بدلا من عقد الجمع فى مدينة صغيرة مثل فلورنسا . ومن المؤكد أن البابا والمشاركين فى الجمع الكونى قد استقبلوا الوفد الحبشى بأذرع مفتوحة ، واحاطوهم بكافة مظاهر التكريم . ولكن الأمر كله انتهى الى نتيجة سلبية تماما . وفى سنة ١٤٤٨ م جاءت الأخبار الى شارل السابع ملك فرنسا عن انذار ملك الحبشة لمصر بالحرب وتحويل مجرى النيل . وفى منتصف القرن الخامس عشر أخذ « ألفونس الخامس » ملك راجون يفكر فى احياء مشروع غزو مصر من الجنوب وأرسل سفارة لهذا الغرض الى الحبشة(٦٨) .

وفى سنة ١٤٨٤ م قام « جون الثانى » ملك البرتغال بخطوة عملية لاقامة نوع من الاتصال المباشر مع الحبشة ، فأرسل سفارة يرأسها « بارتلميو دياز » الذى سار بحذاء شاطئ أفريقيا لبحث امكانية الوصول الى الحبشة عن طريق البحر . كما رتب لارسال سفارتين أخريين عن طريق البحر المتوسط ومصر . وكانت البعثة البرية من اثنين هما « بطرس دى كوفلهام » و « ألفونسو دى بافيا » . وبفضل اجادة الانين للغة العربية تمكنا من دخول ميناء الاسكندرية باعتبارهما من المغاربة . وبعد عدة تقلبات مات « دى بافيا » ووصل « كوفلهام » الى الحبشة واستحوذ على ثقة الملكة هيلانة الوصية على العرش ثم ابنها الملك داود حين بلغ سن الرشد وبقي كوفلهام بالحبشة واتخذها وطنا ثانيا له بعد أن تزوج سيدة حبشية ثرية وأنجب منها عدة أبناء(٦٩) .

(67) Ibid, pp. 91-2.

(٦٨) Ibid, p. 92. ، الشاطر بصيلى ، تاريخ وحضارات ،

ص ١٣٤ وما بعدها .

(69) Ziada, Foreign Relations, pp. 287—88; Leo Hansberry, «Ethiopian Ambassadors», p. 93.

وثناء اقامته بالحبشة دون « كوفلهام » الكثير من المعلومات القيمة عن الحبشة والنشاط التجارى فى البحر الأحمر على طول شاطئى أفريقيا الشرقى، ثم أرسل يستحث الملك البرتغالى على اكتشاف هذا الطريق ، وربما كانت هذه المعلومات من العوامل التى أفرزت رحلة « فاسكو دا جاما » الشهيرة ١٤٩٨ — ١٤٩٩ م بمساعدة الملاح المسلم « أحمد بن ماجد » (٧٠) .

وفى سنة ١٥٠٩ م قامت الملكة هيلانة — اثناء وصايتها على ابنها داود الثانى — بارسال سفارة الى الملك عمانويل ملك البرتغال بسبب خوفها من تقدم العثمانيين فى المنطقة العربية . وكانت تعتقد أن البرتغال يمكن أن يمدوا الأحباش بالأسلحة النارية التى يستخدمها العثمانيون (٧١) .

وقد أدى سقوط مصر تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧ م الى أن يرث العثمانيون حكم مصر من سلاطين المماليك ، ويرثون بالتالى مسئولية ادارة الصراع ضد القوى الأوروبية والأحباش فى البحر الأحمر ، وبذلك انطوت صفحة العلاقات بين مصر والحبشة فى تلك الفترة التاريخية لتبدأ صفحة جديدة أهم ما يميزها هو فقدان مصر لاستقلالها ودورها ، وفقدان البحر الأحمر لقيمه التجارية والعسكرية بشكل مؤقت .

هكذا تداخلت خيوط العلاقة بين مصر والحبشة فى عصر سلاطين المماليك بين مجالات الاقتصاد والدين والسياسة ، ولكن هذا لم يمنع وصول المؤثرات الحضارية المصرية الى الحبشة المسيحية والمسلمة ، سواء عن طريق الكتب أو الفقهاء ، أو الحج والتعليم فى مدارس مصر بالنسبة للمسلمين ، أو المطارنة ورجال الدين وحجاج بيت المقدس والرهبان الأحباش بالنسبة للمسيحيين . كما ساهم عدد من المصريين فى تطوير التنظيمات الادارية والمالية والعسكرية فى مملكة الحبشة المسيحية .

(٧٠) يحيى بن الحسين ، غاية الأمانى ، ج ٢ ، ص ٦٣٠—٦٣٢ ، جورج حورانى ، العربى والملاح فى المحيط الهندى ، ص ٢٣٧ .

(71) Leo Hansberry, op. cit., p. 94.

ومن المهم أن نلاحظ أن معلومات المصريين عن الحبشة فى عصر المماليك كانت وافرة بالقدر الذى يكشف عن مدى اهتمام مصر بعلاقاتها مع الحبشة . فقد حفلت كتب « ابن فضل الله العمري » ، و « القلقشندي » ، و « المقرئى » و « النويرى » و « ابن عبد الظاهر » وغيرهم بالمعلومات الهامة عن الحبشة ، من حيث الموقع الجغرافى والمساحة والأقاليم ، فضلا عن أنواع الطيور والحيوان والنبات الموجودة فى تلك البلاد ، والمعادن وأنواع العملات ، والأسعار ، الى جانب أزياء الأقباش وأسلحتهم ونظمهم الادارية والمالية .